٣ـ الواقعية

(Realisime)

جاءت الواقعية هدماً للرومانسية كما كانت الرومانسية من قبلُ هدماً للكلاسيكية . وبدا هذا المذهب الأدبي الجديد انعكاساً للحياة الأوروبية الجديدة في القرن التاسع عشر ، وهي حياة تمثّلت فيها مجموعة من الظروف والملابسات الاجتماعية والفكرية والسياسية . من أهمها :

١ ـ التطور العلمي : سادت الروح العلمية . وبدا العلم يروع النفس ويأسرها بما يحقق من كشوف واختراعات ، حتى توهم قوم أن فيه الحلّ لكل مشكلات الحياة ، وأنه وحده المهيأ لمعرفة هذه الحياة وتحليلها وتفسيرها .

ومن ثمّ اتّسعت الهوة بين الأدب كما كان يراه الرومانسيون والأدب المنشود لهذا الواقع العلمي الجديد . الأدب عند أصحاب المذهب الرومانسي يحلّق ـ كما عرفت ـ في ملكوت الخيال ، وعلى أجنحة العاطفة الجامحة ، وأما العلم فهو الذي يمثّل الحقيقة ، ويعبّر عن الواقع ، فكان لا بد من انتباذ الخيالات والأوهام ، والهبوط إلى أرض الواقع المحسوس المشاهد الذي يعيشه الناس .

وراح الناس ـ في ضوء هذا الواقع المادي الجديد ، وإنجازات العلم الباهرة ـ يزايلهم الانطواء على النفس ، والاسترسال في العاطفة ، فكان المذهب الواقعي اتجاهاً ينهض على إيمان راسخ من دعائم العلم وحقائقه ، وتقرير للظواهر الاجتماعية والنفسية التي تراها العيون ، وتؤيدها التجربة والبرهان .

٢ ـ نشوء أو ازدهار الفلسفات التجريبية والوضعية وغيرهما : التي بنت قضاياها على التجربة ، وآمنت بدور الحواس في إيصال المعرفة ، حتى راحت تستبعد كل تفكير لا يستمد من الحسّ والتجربة ، فرفضت القضايا المتيافيزيقية والغيبيات والقيم الإيمانية ، وبدت المادة وحدها إله هذا المجتمع الجديد ، وصار المال رباً يُعبد ، وفقد الناس الإيمان بالمثل والأخلاق والعقائد ، وسادت أخلاق جديدة ، هي الانتهازية ، والخداع ، والغش ، والغاية التي تسوّغ الوسيلة .

وقد صوّر الروائي الفرنسي الشهير «بلزاك» في ملهاته البشرية المكوّنة من أربعة وتسعين جزءاً تصويراً دقيقاً الحياة الفرنسية وأخلاق المجتمع الأوروبي الجديد ، الذي يسود فيه المال ، ويحتل أصحابه مكان الصدارة ، وفي الجانب الآخر يقف الفقراء والعمال وأصحاب المبادئ المثالية لا يملكون شيئاً ، لأن الرأسماليين يحتكرون سوق الأجور ، ويحرّكون المجتمع ، ويتحكمون بكل شيء .

٣ ـ قيام الثورة الشيوعية عام (١٩١٧) فيما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي ، ثم الثورة الصينية ، وانتشار المبادئ الماركسية والاشتراكية ، وقيام أنظمة عالمية تتبنى هذه المبادئ وتدعو إليها ، وهي جميعها تدعو إلى أدب واقعي يعبّر عن مشكلات الحياة الاجتماعية ، ويصدر عنها ، وترى المادة هي الأصل ، والفكر تابعاً لها .

الخصائص العامة للواقعية :

عرف بعضهم الواقعية بقوله : «الواقعية في الفلسفة معناها ذلك المذهب الذي يقرره وجود العالم الخارجي مستقلاً عن الفكر ، ويتمثل في فلسفة أرسطو وجميع الفلسفات التي تأثرت بها[1] .

ولكن ليس للواقعية تعريف جامع مانع ، وهي ليست اتجاهاً واحداً ، بل أخذت ـ كما سترى ـ أكثر من اتجاه ، واندرجت تحتها مدارس مختلفة تتناقض أحياناً في رؤية الواقع وفهمه . ويبدو أن الواقعية صارت مناخاً فكرياً عاماً باشره كل أديب بطريقته الخاصة .

وعلى وجود «واقعيات»لا «واقعية» واحدة ، عرفت سمات عامة أو قواسم مشتركة جمعت بينها ، وأهم هذه المبادئ العامة التي تشترك فيها جميع المدارس الواقعية هي :

١ ـ الاهتمام بالواقع ومعالجة مشكلاته وقضاياه . ومن هنا جاء اسمها .

٢ ـ التماس الحقيقة في الواقع المحسوس الذي يمكن الوصول إليه عن طريق التجربة والبرهان ، ومن ثم لم تؤمن الواقعية بعالم علوي ، أو غيبي وراء الواقع المشاهد المعاين كما كانت تقول «نظرية المثل» لأفلاطون مثلاً ، والمذاهب الأدبية التي انطلقت منها .

---

(١) معجم مصطلحات الأدب ، لمجدي وهبة : ص٤٦٧ .

٣ ـ تصوير الحياة كما هي ، والتزام الدقة والموضوعية في عرض الواقع ، من دون إسراف في التخيل ، أو تهويل في العواطف ، ومن غير سلطان للمؤثرات الداخلية من مشاعر الكاتب وأحاسيسه ، بل عرض هذا الواقع ـ كما تدعي ـ على طريقة العلم في حَيْدة ودّقة ، وفي أمانة وصدق ، حيث يقوم التحليل مقام التخييل ، والمنظور مقام الموهوم ، والمرئي مقام الغائب .

٤ ـ الإيمان بتأثير الظروف الاجتماعية والمادية في سلوك الإنسان وتصرفاته وأفعاله .

٥ ـ الاهتمام بالمجتمع أكثر من الفرد كما كان الحال عند الرومانسيين ؛ فالواقعية أدب اجتماعي لا شخصي ، يذوب الفرد فيها في دائرة الجماعة ، ويطغى صوتها على صوته ، وملامحها على ملامحه الذاتية الخاصة .

٦ ـ الاهتمام بالطبقات الدنيا : من فقراء وعمال وكادحين ، وهي طبقات كانت كلٌّ من الكلاسيكية والرومانسية قد أهملتها ، ولذلك عني الأدب الواقعي بموضوعات البؤس ، والجوع ، والتشرد ، والحرمان ، والانحراف ، والشذوذ . . وما شاكل ذلك مما تعاني منه الطبقات الدنيا من الناس .

٧ ـ الاهتمام بالأدب الموضوعي ، ولا سيما القصة التي ازدهرت على أيدي الواقعيين ازدهاراً عظيماً ، لقدرتها على تصوير الواقع ومشكلات الناس .

٨ ـ العناية بمضمون العمل الأدبي أكثر من العناية بالشكل كما كان الحال مثلاً عند الكلاسيكيين أو أصحاب الفن للفنّ .

٩ ـ معاداة فكرة الفن للفن ، والدعوة إلى فنّ مجنّد لخدمة المجتمع ، والتزام قضاياه وهمومه .

في إطار هذه المبادئ العامة التي شكلت القواسم المشتركة للاتجاه الواقعي ، تميّزت مجموعة من الواقعيات جمعت بينها هذه الملامح التي ذكرناها ، وكانت لكلّ منها ـ في الوقت ذاته ـ رؤية خاصة عن الواقع ، وعن سمات الأدب الذي تعبّر عنه ، وأهم هذه الواقعيات التي سنتوقف عندها ثلاث ، هي :

١ـ الواقعية النقدية (الاوروبية)
(Critical Realisime)

وتسمّى الواقعية الأوروبية كذلك . وهذه الواقعية النقدية ، أو الانتقادية ، تمثل رؤية الغرب الليبرالي للأدب ، وهي تتسم ـ زيادة على الملامح العامة التي ذكرناها ـ بما يأتي :

١ ـ التشاؤم والسوداوية : إذ رأت الواقع شراً كله ، وهو وبال ومحنة ، على عكس ما كانت ترى ذلك الفلسفة المثالية ؛ إذ رأت هذا الواقع خيراً وسعادة ، وأن الإنسان فاضل بطبعه .

مضت الواقعية الأوروبية ترى الحياة من منظار أسود ، فشككت في القيم الإنسانية ، والمثل الرفيعة ، ورأت ذلك كله زيفاً ودجلاً ؛ إذ الشر عنصر أصيل في الحياة ، فبحثت عنه ، وجعلته محور العمل الأدبي ، وراحت تقول : إن ما يبدو من خير ما هو في حقيقته إلا بريق كاذب ، وقشرة ظاهرية «فالشجاعة والاستهانة بالموت لو نقّبنا عن حقيقتهما لوجدناها يأساً من الحياة ، أو ضرورة لا مفر منها ، والكرم في حقيقته أثرة تأخذ مظهر المباهاة ، والمجد والخلود تكالب على الحياة ، وإيهام للنفس بدوامها أو استمرارها .

وهكذا الأمر في كافة القيم المثالية التي نسميها قيماً خيرة ، فهي ليست واقع الحياة الحقيقية ، وإنما هذا الواقع هو الأثرة وما ينبعث عنها من شرود وقسوة ووحشية .

وما القيم الأخلاقية والمواضعات الاجتماعية إلا أغلفة نحيلة لا تكاد تخفي الوحش الكامن في الإنسان ، وهو ذلك الوحش الذي عبر عنه الفيلسوف الإنكليزي الواقعي هوبز بقوله : إن الإنسان للإنسان ذئب ضار . . »[١] .

---

(١) الأدب ومذاهبه : ص٨٥ .

٢ ـ لا تصور الواقعية الأوروبية أو النقدية الواقع كما هو بخيره وشرّه . وهي ليست مثل عدسة التصوير التي تلتقط جميع الظواهر ، بل هي تركز على الشّرّ وحده ، لأنه ـ بحسب ما تتوهم ـ هو الأصل في الحياة ، ولذلك عنيت بتصويره ، وبحثت عنه ، وجعلته محور دراستها ، لإظهار تناقضاته وعيوبه .

وهكذا فإن الواقعية النقدية ـ كما يقول الدكتور محمد مندور ـ :«ليست الأخذ عن واقع الحياة وتصويره بخيره وشرّه كالآلة الفوتوغرافية ، كما أنها ليست معالجة لمشاكل المجتمع ، ومحاولة حلها ، أو التوجه نحو هذا الحل ، وإنما هي فلسفة خاصة في فهم الحياة والأحياء وتفسيرهما ، أو هي وجهة نظر خاصة ترى الحياة من منظار أسود ، وترى أن الشرّ هو الأصل فيها ، وأن التشاؤم والحذر هما الأجدر ببني البشر ، لا المثالية والتفاؤل . . »[1] .

٣ ـ ومن روح التشاؤم التي تطبع المذهب الواقعي النقدي كذلك رؤيته الواقع معطى ثابتاً لا سبيل إلى تغييره ، ولا أمل في إصلاحه أو تبديله ، ولذلك ينبغي تصويره كما هو بموضوعية ، ومن غير تدخل من الكاتب ، أو تأثر بالعاطفة أو المشاعر .

٤ ـ ولأن هذا الواقع مُعْطى ثابت لا يتغير ، لم تَتَبَنَّ الواقعية النقدية أي فلسفة تجاهه ، بالدعوة مثلاً إلى الثورة عليه ، أو محاولة إصلاحه ، أو تحريض الإنسان على تغيير ظروفه . إذ الإنسان مجبور ، لا يمكنه تبديل ظروفه ، وهو لا حَوْل له ولا طَوْل .

ومن أبرز أدباء الواقعية الأوروبية بلزاك صاحب الموسوعة القصصية «الكوميديا البشرية» وهي تضم حوالي مائة وخمسين قصة ، صور بلزاك فيها مجتمع باريس الذي تسوده المادة ، ويسيطر فيه المال ، وتنعدم الأخلاق والمثل ، ولا يؤمن بهما إلا السّذّج الأغبياء ، حتى لنسمع «فوتران» يقول لصديقه «راستنياك» محذراً إياه من الانسياق وراء وهم الأخلاق والفضيلة ، ومبيّناً له أن الوصول إلى النجاح والثروة لا يكون إلا بالخسّة والوضاعة : «أتدري كيف يشق الناس سبيلهم في هذه الدنيا؟

---

(١) السابق : ص ٨٦ .

يشقونه ببريق العبقرية أو بالمهارة في الخِسّة . يجب أن تسقط بين صفوف البشر كقنبلة ، أو أن تتسلل بينها كوباء ، أما الشرف فلا فائدة منه . .»[1] .

ومن أدباء الواقعية الأوروبية الكبار كذلك «موباسان» و « فلوبير» و« توماس هاردي» و «تشارلز ديكنز» و«أرنست همنجواي» و « ثاكري» وكثيرون غيرهم .

وكان أدب هؤلاء جميعاً تعبيراً عن أزمة الحضارة الأوروبية والإنسان الغربي المعاصر ، الذي فقد الإيمان بكل شيء ، ولم يرَ الحياة إلا من خلال هذا المنظار الضيق ، منظار المادة ، وما هو محسوس مشاهد تؤيده التجربة ، أو يخضع للبرهان . .

(١) السابق : ٨٧ .

٢ـ الواقعية الطبيعية

(Naturalism)

يعدّ هذا المذهب تطويراً للواقعية النقدية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهي تتسم ـ زيادة على الملامح العامة المشتركة التي ذكرناها ـ بما يأتي :

١ ـ تأثرها الشديد بالنظريات العلمية ، ودعوتها إلى تطبيقها وإظهارها في العمل الأدبي ، وهي لا تكتفي ـ كسابقتها ـ بالملاحظة ، بل تستعين بالتجارب والأبحاث العضوية والفسيولوجية لمعرفة حقائق الإنسان العميقة وحقائق الحياة .

وقد اشتطّ أصحاب هذا المذهب في النزعة الجبرية حتى ذهب واحد مثل «إميل زولا» الروائي الفرنسي الشهير الذي تدين الطبيعية بوجودها له ، إلى القول : «إن العالم الإنساني يخضع للحتمية التي تخضع لها الطبيعة» وحاول أن يقتفي صنيع العالم «كلود برنار» في كتابه «الطب التجريبي» فوضع بدوره كتاب «القصة التجريبية» .

وإن منهج الروائي عندهم كمنهج العالم الذي يلاحظ ويجرِّب من غير أن يصف شيئاً من عنده ، أو أن يتخيل شيئاً غير قائم .

وقد تطلع زولا ـ الذي يبدو الأدب عنده وكأنه مختبر ـ إلى تقليد التجارب الكيميائية التي تجري في المعمل ، ورأى أن الأديب يمكن أن يقوم بالشيء نفسه مع الإنسان ، فلا يكتفي بالملاحظة ووصف ما يشاهد كما فعل أصحاب الواقعية النقدية ، وإنما يجب أن ينتقل من الملاحظة إلى التجريب ، ورأى أنه يمكن تطبيق خطوات التجربة العلمية في مجال الأدب ولا سيما القصة .

وهكذا حاول الطبيعيون أن يأخذوا بمنهج العلوم التجريبية ، فيطبقوه على الرواية[١] .

وكان زولا يقول : «إن على الروائي أن يعمل في الطباع والأهواء ، وفي الحوادث الإنسانية والاجتماعية كما يعمل الكيماوي أو الفيزيائي في الأجسام الخام ، وكما يعمل الفيزيولوجي في الأجساد الحية . .» .

---

(١) انظر «في النقد الحديث» لنصرة عبد الرحمن : ص٣٥ .

٢ ـ ومثلما تعسف أصحاب الطبيعية في التأثر بالنظريات العلمية ، وفي النزعة الجبرية الحتمية ، تعسفوا وغلوا في نظرتهم إلى الإنسان الذي كرّمه الله تعالى ، حتى قالوا عنه إنه حيوان تسيّره غرائزه وحاجاته العضوية ، وإن سلوكه ومشاعره هي نتاج لبنيته العضوية ، أي أن التركيب العضوي للإنسان ، من حيث شكله وغدده وأجهزته ، يؤثر في مزاج المرء وتفكيره ، ويحدّد سلوكه وأخلاقه وعلاقته بالمجتمع .

وقد سمّى زولا إحدى رواياته «الحيوان البشري» وفي ذلك كفاية لتعرف رأيه في الإنسان الذي تحكمه غرائزه ، وقال عند تقديمه لرواية «تيريز راكان» : لقد اخترت أشخاصاً تسيّرهم أعصابهم ودماؤهم ، أشخاصاً تجرّدوا من الإرادة الحرة ، وانقادوا في جميع أفعالهم لأقدار كيانهم العضوي . . إنهم حيوانات بشرية لا أكثر . . الروح غائبة عنهم تماماً . . » .

وهكذا انتفت حرية الإرادة والاختيار عن الإنسان في هذا المذهب الطبيعي ، وبدا عبداً لغرائزه ، أو وحشاً بشرياً تحركه هذه الغرائز والشهوات .

٣ ـ ركزت الطبيعة على معالجة أمراض المجتمع وشروره ، وذهبت إلى أن الطبقة الفقيرة أو العناصر الدنيا هي بيت الداء ، فراحت تشرّح تلك الطبقة ، وتبسط آفاتها ، من فقر مدقع ، وشهوة ، وشذوذ ، وانحراف جنسي . . إلخ أي أنها اختارت من الواقع أسوأ ما فيه ، ومن الحياة شرّ عناصرها .

يعد «إميل زولا» من أبرز كتاب المذهب الطبيعي ، وقد سخّر قسماً كبيراً من قصصه التي كتبها لتصوير أسرة واحدة ، هي أسرة«روجون ماكار» ليؤيد بهذه السلسلة مذهب الطبيعية الذي دعا إليه ، جامعاً بين تأثير الحياة العضوية وبين تأثير الوراثة في تكوين الشخصية البشرية . .[١] .

---

(١) انظر الأدب ومذاهبه : ٩٧ ـ ٩٩ .

٣.الواقعية الاشتراكية
(Social Realisim)

ويسمّيها بعضهم الواقعية الجديدة . وهي من مدارس القرن العشرين ، نشأت بعد قيام الثورة الشيوعية في روسيا عام (١٩١٧) وهي تجسّد الرؤية الماركسية للأدب ، وتعبّر عن نظرتها إلى الواقع الذي اهتمت به .

ورد تعريف الواقعية الاشتراكية رسمياً في إحدى مواد دستور اتحاد الكتاب السوفييت الذي وضعه أول مؤتمر عام لهذا الاتحاد سنة ١٩٣٤ ، ونص المادة هو : «إن الواقعية الاشتراكية هي المنهج الأساسي للأدب والنقد الأدبي السوفيتيين ، وهي تتطلب من الفنان أو الأديب تمثيل الواقع في حالة نموه الثوري تمثيلاً صادقاً .

وعلى هذا فإن صدق التمثيل الفني للواقع يجب أن يرتبط بنوعية العمال ، ويدعم إيمانهم بروح الاشتراكية .

وقد استخدم هذا المصطلح لأول مرة في الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٣٢ . .»[١] .

وعلى الرغم من أن الواقعية الاشتراكية لا تأتي في التسلسل الزمني بعد الواقعية الأوروبية أو الطبيعية ، بل سبقتها مدارس أخرى كالرمزية وغيرها ، إلا أننا أدرجنا الحديث عنها في هذا الموضع لنجمع المذاهب الواقعية كلها في بحث واحد .

تنفرد هذه الواقعية الجديدة بملامح خاصة تميّزها من غيرها من المدارس الواقعية التي تحدَّثنا عنها . . ومن أبرز هذه الملامح :

١ ـ إن الأدب ـ وهو فكر ـ تابع للنشاط الاقتصادي ، أي أن الأدب والفن عموماً هما انعكاس للبنى التحتية ، أي الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فكأن المادة هي الأصل ، وهي تسبق الوعي . والموجودات نوعان : مادي وفكري ، والثاني تابع للأول ، ومترتب عليه ، وانعكاس له[٢] .

---

(١) معجم مصطلحات الأدب : ص٥٢٥ .

(٢) انظر : «النظرية الأدبية الحديثة» لآن جفرسون وديفيد روبي ، ترجمة سمير محمود ، وزارة الثقافة ، دمشق : ص ٢٤٧ .

٢ ـ المادة في حركة دائمة ، والتناقض الداخلي هو الذي يحرّكها . والتاريخ الإنساني تاريخ حركة المجتمعات وانتقالها من طور إلى طور : من المشاع البدائي ، إلى الرق ، إلى الإقطاع ، إلى الرأسمالية ، ثم إلى الشيوعية .

والتناقض الداخلي الذي يحرك المجتمع ، وينقله من طور إلى طور ، هو التناقض بين طبقاته ، أو بين تشكيلاته الاجتماعية ؛ ففي المجتمع الإقطاعي طبقتان : مالك الأرض والعامل فيها . وفي المجتمع الرأسمالي طبقتان : مالك المصنع والعامل فيه . ومالك الأرض ومالك المصنع هما اللذان يجنيان الربح الوفير ، ويحتكران السوق ، والفلاح والعامل مظلومان ، مهضوما الحق[١] .

وتزعم الماركسية أن الشيوعية نهاية المطاف في التطور الإنساني ، وهي نهاية محتمة ، وفيها يزول التناقض ، وينتهي الصراع ، وتملك الفئة العاملة «البروليتاريا» وسائل الإنتاج ، ويتحقق النصر لها ، وتسود الشيوعية .

٣ ـ إذا كانت روح التشاؤم والسوداوية هي التي طبعت الواقعية الأوروبية والطبيعية كما عرفت ، فإن روح التفاؤل ـ فيما يُزعم ـ هي التي تسود هذه الواقعية الاشتراكية ، ويأتي هذا التفاؤل ـ في تصورهم ـ من جملة أمور :

أ ـ إن الواقع ـ وهو هنا واقع كئيب يسوده الصراع بين الطبقات ـ ليس معطى جبرياً ، لا سبيل إلى تغييره ، بل يمكن تغييره ، والإنسان ليس مجبوراً ، بل هو يملك القدرة على التغيير ، إنه ليس مسلوب الإرادة ، بل يلعب دوراً إيجابياً في توجيه المجتمع ، وإصلاح ظروفه ، وتحقيق الانتصار .

وعلى الرغم من أن الإنسان ـ كما قالت الواقعية النقدية ـ ابن شروطه التاريخية ، ورهين بيئته ومجتمعه ـ إلا أنه يملك تغيير هذه الشروط .

ب ـ إن انتصار الشيوعية التي يدعي أصحابها أن فيها الخلاص للإنسان والبشرية هو أمر حتمي ، وهي خاتمة المطاف ، ونهاية التاريخ البشري .

---

(١) انظر في النقد الحديث ، نصرة عبد الرحمن : ٩٠ ـ ٩٥ .

ج ـ إن الصراع الأزلي بين الغني والفقير ، بين مالك الأرض والفلاحين ، بين صاحب المصنع والعمال ، سينتهي بالثورة المحتومة التي ينتصر فيها الفقراء والعمال والفلاحون «البروليتاريا» فتقوم الشيوعية ، وتنعدم الملكية الفردية ، وتتحقق العدالة ، ويتساوى الجميع[١] .

٤ ـ ولأن هذه الطبقة الدنيا ـ من عمال وفلاحين وفقراء ـ هي الطبقة المغيّرة الفاعلة في التاريخ ، أولتها الواقعية الاشتراكية اهتمامها الأول ، وتوجهت بالخطاب الأدبي إليها وحدها ، وزادت في اهتمامها بها على الواقعيات السابقة .

عدتها الجماهير ، ودعت الأدباء إلى التزام «قضية الجماهير» وحصرت اهتمامها بطبقات الفقراء والعمال والفلاحين ، وراحت تتوجه بالخطاب إليها ، وتقصر «كل أحكامها على تمجيد العامل ، وعلى تمجيد الكاتب العمالي ، وتدعو إلى تركيز الأدب في أناشيد العرق والكدح ، وفي تمجيد الجماهير أو الجماهير الكادحة ، والتبشير بأمجادها وجهادها ومستقبلها ، وفي الدعوة لقضاء حاجاتها المادية . وهي تتهم كل أدب وفن وفكر لا يخصص لهذه الموضوعات بأنه أدب بورجوازي ، وفن بورجوازي ، وفكر بورجوازي .. »[٢] .

وهكذا بدا أدب الواقعية الاشتراكية أدباً طبقياً فئوياً ، يتوجه بالخطاب إلى طبقة معينة ، هي الطبقة التي عرفت .

٥ ـ من الواضح أن الواقعية الاشتراكية ليست مثل الواقعية النقدية حيادية تجاه الواقع ، أو ليس لها فلسفة تجاهه ، أو لا تبشر بشيء يتعلق به ، بل هي صاحبة موقف تجاه هذا الواقع ، تصوّره وتبرز تناقضاته لتحرك الجماهير للثورة عليه وتغييره .

٦ ـ أعلنت الواقعية الاشتراكية عداءها السافر الصريح للأديان ، وعدّتها أفيوناً يخدِّر الجماهير ، وينيمها عن قضاياها والمظالم التي تقع عليها .

---

(١) انظر : «المذاهب الأدبية والنقدية» لشكري عياد ، عالم المعرفة ، الكويت : ص٢٤ .

(٢) الاشتراكية والأدب : ص٤٦ .

٧ ـ رفعت شعار الالتزام الأدبي ، ولكنه التزام ضيق محصور في الطبقات الدنيا كما عرفت . وعدّت الأدب نشاطاً اجتماعياً ، والأديب مسؤول عن كلّ ما يكتبه . واشتطت في الدعوة حتى صار الالتزام إلزاماً وإجباراً .

يقول بليخانوف ـ الزعيم ، والمفكر الروسي ، وأحد أصحاب لينين ـ : يجب على الفن أن يبرز المستقبل في شكل بزرة تزرع في صميم الواقع الذي يصوّره . والناقد الماركسي يجب أن ينظر بمنظار الطبقة التي تحمل المستقبل بين أحضانها ، أي طبقة «البروليتاريا» ويجب أن يكون دأبه وديدنه تكوين الشعب وتسليحه إيديولوجياً .

كما دعا لينين (١٩٠٥م) كل أصحاب الأقلام أن تعتنق المبادئ الحزبية ، وأن تخضع إمكاناتها لنصرة طبقة «البروليتاريا» وتحقيق الاشتراكية .

كما كان ماوتسي تونغ ـ الزعيم الصيني الشيوعي ـ يرى العلاقة قوية بين الأدب والمجتمع ، ويركز على الدور العملي الدعائي للأدب . .[١] .

وهكذا أعلنت الواقعية الاشتراكية عداءها الصريح لفكرة«الفن للفن» التي استبعدت قيام الفن بأي وظيفة اجتماعية أو خلقية ، وعدّته نوعاً من اللعب ، أو النشاط المجرد عن الغاية .

٨ ـ اهتمت الواقعية الاشتراكية بالقصة والمسرح والشعر ، وتبنّت عند سيادتها في الشعر العربي الحديث قصيدة «الشعر الحر» وراحت تتحمس لها حماسة منقطعة النظير ، وتزعم أنها الشكل الثوري المناسب للتعبير عن موضوعات العصر ، وعندما وصل أصحاب الاتجاه الشيوعي إلى مواقع السلطة فرضوا الشعر الحر بالقوة .

يقول أحد الدارسين معبّراً عن هذه الفكرة : «بتأييد السّلطة استطاع الشّعر الحديث أن يوطد مواقعه ، ويجد المجال أمامه واسعاً ، وينهي سلطة الاتباعية القديمة إلى غير رجعة ، مؤكداً قدرته على مجاراة الأحداث بفارق كبير جداً على الشعر السّلفيّ . .»[٢] .

---

(١) قضايا الأدب العربي : ٤٩٨ .

(٢) واقعية ما بعد الحرب ، لحنا عبود : ١١٧ .

نقد الواقعية

لا يرفض الأدب الإسلاميّ كلّ ما جاءت به المدارس الأدبية الغربية ، وهو لا يضع كلّ ما تمخّضت عنه من الرؤى والأفكار في قفص الاتهام ، ولكنه يصطفي الخير ، وينتقي النافع ، بل يكون أحرص عليه وأولى به من صاحبه الذي أنتجه ، لأنه من الحكمة المأمور بالبحث عنها ، ومن ثمّ فإن منهج التعامل دائماً مع فكر الآخر هو الاصطفاء ، اصطفاء الصالح ونبذ الفاسد ، والصالح ما أقره الإسلام ، والفاسد ما اختلف معه ، أو خرج عليه .

وفي ضوء هذا المعيار فإن بعض ما أتت به المذاهب والتيارات الغربية لا يجد التصور الإسلاميّ حرجاً في قبوله والاستفادة منه .

المقبول من الواقعية :

من صميم رسالة الأدب الإسلاميّ الاهتمامُ بالواقع ، ومعالجة قضايا الإنسان ، وتصوير مشكلات الحياة وهمومه ومعاناته فيها . فالأدب للإنسان والحياة ، وهو في خدمتهما ، والارتقاء بهما ، ولا بدّ أن يكون مجنّداً لهذا الدور العظيم .

لا شك إذن في أهمية معالجة الأدب للواقع ، وإن كلّ تجاهل لهذا الواقع ، أو القفز فوقه ، أو التغافل عنه ، كما فعلت الرومانسية وغيرها ، هو اتجاه غير مُجْدٍ . كما أن الفرار من الواقع ، بحجّة رفضه أو إدانته والاحتجاج عليه كما تدعو إلى ذلك بعض الاتجاهات الأدبية ، هو كذلك اتجاه غير مجدٍ .

إن التعبير عن هموم المقهورين المستضعفين في الأرض ـ مهما كانت طبقتهم ـ يمثّل جوهر الرسالة الخلقية للأدب كما يراه الإسلام .

وإذا كان التصور الإسلامي يتّفق مع الواقعية في ضرورة الاهتمام بالواقع ، ومعالجة قضاياه ، فإن مفهومه للواقع والإنسان مختلف كل الاختلاف عن مفهوم الواقعيات الغربية المختلفة التي قدّمت عنه تصوراتٍ فكرية سقيمة لا تقبل بها فطرة سليمة .

والحق أن الواقعية الأوروبية لم تصور الواقع كما هو ـ على نحو ما ادعت ـ بل صورته من خلال فلسفة فكرية سوداء آمنت بها .

١ـ نقد الواقعية الاوروبية والطبيعية

في الواقعية الأوروبية عوار كثير لا حدّ له ، وهي ـ في كثير من تصوراتها ـ لا تتفق مع الإسلام ، ولا مع الفطرة الإنسانية السليمة عامة :

١ ـ إهدار كرامة الإنسان :

كانت الواقعية الأوروبية تعبيراً صارخاً عن أزمة الإنسان الغربي ، في عصر فقد فيه الإيمان بالدين ، وشكّ في جميع العقائد والقيم والأخلاق ، وغرّه العلم ببريقه الخلاّب ، ولمعانه الباهر ، فظن ـ في غمره ما يحققه هذا العلم من إنجازات مادية مذهلة ـ أنه يجد فيه الخلاص من أزماته ، فتركّز اهتمام الإنسان الغربيّ في المادة ، التي أصبحت مَعْلَماً بارزاً من معالم الحضارة الغربية والحياة الغربية .

بدأ الإنسان في هذه الحضارة المادية ـ المعزّزة بعلم الظاهر الحسيّ ـ يبتعد عن عالم الروح ، وعن المثاليات ، والقيم ، والأخلاق ، التي نادت بها الأديان والعقائد وجميع الحركات الإنسانية الخلقية .

هبط هذا الإنسان إلى الواقع الحسي الذي صوّرته الواقعية الأوروبية ـ بسبب أزمات الإنسان الغربيّ النفسية ، والاجتماعية ، والسياسية ، وتصوراتها المادية السقيمة ـ أسوأ تصوير . تصوّرته شراً كله ، كما صوّرت الإنسان ـ الذي هو جزء من هذا الواقع ـ أسوأ تصوير كذلك .

هذا الإنسان الذي كرّمه الله تعالى بقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، انحطّت به الواقعية إلى الدَّرك الأسفل ، أهانته منتهى الإهانة ، واحتقرته أشدّ الاحتقار ، فصوّرته حيواناً ضارياً ، أو ذئباً بشرياً ، يتربّص بأخيه الإنسان الدوائر ، لا يؤمن بدين ولا أخلاق ، ولا تردعه قيم ولا مُثُل ، فهذه كلها ـ في عرف الواقعية ـ كلمات جوفاء فارغة لا معنى لها .

وصوّرت الواقعية الطبيعية هذا الإنسان الذي أعزّه الله وأكرمه حيواناً جنسياً تحركه غرائزه الجسدية ، وتكوينه البيولوجي ، ثم حطّته إلى أسفل سافلين عندما جعلته ـ كالحيوان ـ قابلاً للتحليل المخبري ، والتجارب المعملية .

وذلك كله مما لا يخفى على أحد تنافيه مع التصور الإسلامي ، بل مع الذوق والحسّ السّليمين . لقد كرّم الإسلام الإنسان كما قلنا ، وخلقه في أكمل صورة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين :٤] ، واستخلفه في الأرض ليقيم الحق والعدل والخير .

٢ ـ تزييف الواقع :

ومثلما زيّفت الواقعية ـ انتقاديةً وطبيعيةً ـ الإنسان ، زيّفت كذلك الواقع والحياة ، إذ زعمت أنهما شرّ خالص ، وفساد محض ، وهما وبال وآثام ومنكرات ، وجميع قيم الخير التي تظهر في هذا الواقع هي سراب خادع ، وبريق زائف كذّاب ، يركبها الإنسان الشرير بطبعه ليحقّق بها مصالحه المادية ، وليضحك بها على الآخرين .

وهذا كله ممّا يرفضه الإسلام ، وترفضه الفطرة السوية ، والحسّ الإنساني النظيف ؛ فلو كانت الحياة شراً كلها لما تفاضل الناس ، ولما كان ابتلاء وامتحان ، ولما كانت جنة ونار ، وثواب وعقاب ، وحاشا لله ألا يخلق إلا الشّرّ «فالشر ليس إليك» كما ورد في الدعاء .

إن الإسلام في الإنسان ـ على النقيض مما تقول به الواقعية الأوروبية ـ خيّر بطبعه ، يولد ـ كما قال النبي ﷺ ـ :«على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو يمجّسانه ، أو ينصّرانه» ولكن الشياطين تجتاله عندما يخرج عن شرع الله الذي رسمه له ، ويعرض عن ذكر ربه عزّ وجلّ ، فتنحرف به عن جادّة الحقّ ، فيكون شريراً عاصياً ، أو كافراً ملحداً ، أو . . أو . . ولكنه ـ ما التزم شرع الله ـ برّ خيّر مؤمن كريم .

وفي الواقع الخير والشّرّ ، والمؤمنون والكفرة ، ولن يزال في الأرض إلى يوم القيامة ـ مهما عمّ الفساد وطمّ ـ طائفة ملتزمة دينَ الله ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر .

والصراع بين الخير والشّرّ ـ لا بين الطبقات ـ قائم إلى يوم الدين ، والأدب الصادق يصور الواقع بوجهيه معاً ، يصور الحقيقة ، وينتصر للحق ، ويبث الثقة بغلبته وظهوره ، بل يتجنّد لحرب الشرّ ونشر الخير .

٣ ـ سلبية الواقعية :

والواقعية الأوروبية ـ انتقادية وطبيعية ـ مثلما زيّفت الواقع والإنسان ، وصوّرتهما ذلك التصوير السيء المقزّز ، وقفت على الحياد تتفرج على ذلك كله ، من غير أن يكون لها من دور إلا تصوير هذا الواقع الحقيقي الذي تخيلته ، وهو عندها ـ كما عرفت ـ مُعْطى شرير ثابت لا يمكن تغييره ، والإنسان مستسلم خاضع أمامه ، لا حول له ولا قوة ، لا طاقة له على إصلاح أو تغيير ، ولا يفكر في ذلك أصلاً ، ولا يحسّ أنه مطالب به .

على حين أن الإنسان في الإسلام هو كائن بشري فعّال ، وهو ذو دور إيجابي في الحياة وفي المجتمع ، وهو مسؤول ، وهو مؤتمن ، وهو صاحب رسالة ، مدعو إلى الإصلاح ، وتغيير الفساد ، وحرب المنكر ما استطاع إلى ذلك من سبيل ، لا يتفرّج على ما يحدث ، ويدّعي اللامسؤولية ، أو يصطنع اللامبالاة .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «كلكم راع وكلٌّ مسؤول عن رعيته» ، وقال ـ عليه السلام ـ كذلك : «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان» ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ، والغلبة ـ مهما طال الأمد ـ للحقّ وأهل الحق . ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر : ٥١] .

فالشخصية الإسلامية ـ على نقيض ما صورتها الواقعية ـ شخصية منفتحة ، فاعلة ، مؤثرة ، وليست شخصية منطوية ، منعزلة ، مستسلمة ،

والإنسان ـ على عكس ما تقوله هذه المدرسة ـ قادر بالإيمان والصبر والتضحية ، على تغيير الواقع وإصلاح الخلل .

٤ ـ السّوداوية والتشاؤم :

وأدب هذه المدرسة تطبعه ـ كما عرفت ـ روح التشاؤم ، وتسود فيه السوداوية والقنوط ، والخور واليأس .

والإسلام ضد التشاؤم والسوداوية . إن التفاؤل والاستبشار بالخير هما من معالم الشخصية الإسلامية ، ولكنه ـ بطبيعة الحال ـ الاستبشار الواعي المبصر ، وليس من الاستبشار والتفاؤل الزائفين ، القائمين على الإيهام وخداع النفس . إنه التفاؤل المعزّز بالعمل الصادق الدؤوب ، مصداقاً لقوله تعالى :﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

وعندئذٍ تلوح بشائر الفجر ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

٥ ـ شخصيات الواقعية :

يخالف التصور الإسلاميّ للأدب تصورات الواقعية الغربية في اختيار شخصيات العمل الأدبي ، فقد اختارت الواقعية الانتقادية والطبيعية كذلك شخصياتها من الطبقات الدنيا : من الفقراء والعمال والمشردين ومن شاكلهم ، وعنيت بموضوعات معينة تهم هذه الطبقات بالذات ، وهي الفقر والجوع والشذوذ والانحراف والجريمة . . ردّاً على إهمال كلٍّ من الكلاسيكيين والرومانسيين لهذه الطبقات .

وإن التصور الإسلامي للأدب لا يهمل هذه الطبقات ، ولا يهوّن من شأنها ، وهو شديد العناية بالدفاع عن البؤساء والمقهورين والمستضعفين جميعاً ، ولكن الأدب الصادق الأمين لا يهمل الطبقات الأخرى كذلك ، ولا يتوجّه بخطابه إلى فئة دون أخرى .

إن الأدب ـ في المنظور الإسلامي ـ ليس فئوياً ، ولا طبقياً ، ولا عِرقياً ، إنه أدب يخاطب ـ مثل خطاب الإسلام الذي يصدر عنه ـ جميع الناس ، وهو لا يرى الحق حكراً على طائفة دون أخرى ، ولا أن الباطل مرهون بفئة معينة أو طبقة خاصة ، بل الحق والباطل مقسومان في الناس جميعاً ، فمن الأغنياء الصالحون والمفسدون ، ومن الفقراء الصالحون والطالحون . . وقسْ على ذلك جميع فئات الناس .

٢ـ نقد الواقعية الاشتراكية

ذكرنا أكثر من مرة أن الخطاب الأدبيّ الناهض على تصور إسلامي لا يرفض المذاهب الأدبية الغربية لمجرد أنها غربية ، بل هو خطاب منفتح على الآخر ، يقبل منه ما يتفق مع عقيدته ، ويرفض منه ما يجافيها .

وفي مذهب الواقعية الاشتراكية ـ كما في غيره من المذاهب الغربية التي عرضنا لها أو سوف نعرض ـ ما يؤخذ وما يُترك .

التقاء وافتراق :

١ ـ دعت الواقعية الاشتراكية إلى «الالتزام» أي تجنيد الأدب في خدمة المبادئ التي آمنت بها ، فالأدب في هذا المذهب هادف ، ذو وظيفة اجتماعية وسياسية ، يعادي الفن للفن ، وتجريد الأدب من الغاية ، ولكن أصحاب هذا المذهب تعسَّفوا في التزامهم ، فأكرهوا الأدباء عليه ، حتى تحوّل الأمر عند طائفة من التزام إلى إلزام ، ولا سيما حينما سيطر الشيوعيون على الحكم في بعض دول العالم ، وتبنّوا الواقعية الاشتراكية مذهباً رسمياً للآداب والفنون .

والإسلام يدعو كذلك إلى أدب ملتزم ، والأدب ـ في منظوره ـ نشاط فكريّ مؤثر فعّال ، ذو وظيفة ، هي خدمة العقيدة والدين ، وبث الرؤية الإسلامية عن الكون والحياة والإنسان .

ولكن الالتزام الأدب الإسلاميّ لا يختلف عن الالتزام الشيوعي في نوعية المُلْتَزَم به فحسب ، بل في طبيعته كذلك ، فالالتزام الإسلامي فطري تلقائي ، وهو نابع برضى وقناعة من ضمير المسلم ووجدانه ، تمليه عقيدته التي آمن بها ، والعهد الوثيق بينه وبين ربّ العالمين ، فهو اختيار حر لا إكراه فيه .

والالتزام مصطلح نقدي حديث ، يقابله في الفكر الإسلاميّ تعبير «المسؤولية» التي أكد عليها حديث رسول الله ـ عليه السلام ـ :«كلكم راعٍ وكلٌّ مسؤول عن رعيته» .

٢ ـ الواقعية الاشتراكية نزعة متفائلة ، تؤمن بإيجابية الإنسان ، وقدرته على التغيير ، ومن ثَمَّ فشخصيات الأدب الصادر عن هذا المذهب شخصيات فعّالة مؤثرة ثورية .

وكذلك شخصية الإنسان في الأدب الإسلامي ، شخصية إيجابية ، مستبشرة ، متفائلة ، تؤمن ـ اتكاء على الإيمان ، والعمل ، والإخلاص ، والتضحية ـ بنصر الله ، وأنه آتٍ مهما طال الأمد ، وأن ما يتعرض له المسلم من أذى ، أو ضيم ، أو ظلم ، هو ابتلاء من اللّه عزّ وجل لحكمة يعلمها ، ولكن النصر ـ من غير شك ـ للحق وأهل الحقّ .

فالتفاؤل ـ في التصور الإسلاميّ ـ واقعي ، مبنيّ على سنن اللّه في الكون ، وعلى أسس إيمانية يقينية .

ومن ثَمَّ فإن هذا التفاؤل ـ وإن التقى بالاسم مع ما عند أصحاب الواقعية الاشتراكية ـ ليس إياه على الإطلاق ، فهو لا يقوم على الزيف والضلال ، لا يقوم على تزييف الواقع والإنسان ، بتصوّر أن الحياة صراع بين طبقات ، بين غني وفقير ، بين «البروليتاريا» وأصحاب المصانع والأراضي ، وأن الحقّ دائماً مع الفقراء والكادحين ، وأن الغلبة حتماً ستكون من نصيبهم ، وأن ثورتهم المظفرة قادمة ـ من غير ريب ـ لتزيل الفوارق بين الطبقات ، وتقضي على الملكية الفردية ، فتسود الشيوعيةُ العالم ، وينتفي الظلم .

إن مثل هذا التفاؤل الذي تتحدّث عنه الواقعية الاشتراكية هو تفاؤل مُزيّف ، لأنه يقوم على تصورات سقيمة ، تخالف الواقع ، وتجافي الفطرة الإنسانية ، وقد أثبت التاريخ ذلك ، فسقطت الشيوعية ، وثبت بطلان تصوراتها .

عُوَار الواقعية الاشتراكية :

ما أكثر التصورات السقيمة التي حملتها الشيوعية : فكرياً ، واقتصادياً ، وسياسياً ، وفنياً ، مما يخالف كل فطرة إنسانية سوية!

١ ـ الإلحاد :

انطلق اتجاه الواقعية الاشتراكية في الأدب من الفلسفة الماركسية كما عرفت ، فهو يعبّر إذن عن الإيديولوجيا الشيوعية ، وموقفها من الكون والإنسان والحياة ، وهي لا تقل زيغاً وانحرافاً عن الواقعية الأوروبية التي مثّلت المجتمع الرأسمالي ، إذ هي مثلها قائمة على المادية ، بل تزيد عليها أنها قائمة على الإلحاد الصُّراح ، والتنكر للأديان جميعاً ، وعدّها تخلفاً ورجعية ، بل عَدّها أفيوناً يخدِّر الشعوب ، وينوِّم الأمم ، يضحك به رجال الدين ـ كما يزعم الشيوعيون ـ على العامة والبسطاء والمقهورين ، فيزيّنون لهم العالم الآخر ، ويعدونهم بالجنة ، ويرغّبونهم في الحياة الآخرة الحقيقية حتى تسهل سيطرة الرأسماليين والأغنياء عليهم ، فهؤلاء الفقراء والمساكين والكادحون يُزَهَّدون ـ من خلال الدين ، وكلمات رجال الدين ـ بالدنيا وملذاتها ونعيمها ، حتى لا يسعوا إليها ، ولا يكافحوا من أجلها ، أو يثوروا لأخذ حقوقهم فيها ، فتظلّ ملك الرأسماليين والإقطاعيين والأغنياء .

وقد عبّر شاعر عربي شيوعي هو «محمد الفيتوري» عن هذا الموقف المعادي للأديان ؛ والمنكر لوجود اللّه عزّ وجلّ ، بقوله :

كذبٌ . . زيفٌ

وهمٌ . . بهتانْ

ليس على الأرض سوى الإنسان

الطاغيةُ . . العبد الأكبرْ

ما ثَمَّ إله يتجبّرْ

كذبٌ ما قالته الأديان[1]

---

(١) ديوان محمد الفيتوري : ٣٣٦/١ .

ومن البدهي الواضح أن هذه التصورات السّقيمة تتناقض جملة وتفصيلاً مع الإسلام ، فالشيوعية إلحاد وكفر ، والإسلام دين وإيمان .

٢ ـ ضيق أفق الواقعية الاشتراكية :

حصرت الواقعية الاشتراكية ـ التي نبعت من الرؤية الماركسية الشيوعية ـ أزمة المجتمعات في الناحية الاقتصادية ، وتصورت مشكلات العالم الحالية ، وعبر التاريخ كذلك ، قائمة على العامل الاقتصادي وحده ، وبذلك أعادت الصراع في المجتمعات إلى هذا العامل الماديّ ، فزعمت أن «البنية الفوقية» من دين ، وأخلاق ، وفكر ، وأدب . . وما شاكل ذلك تابعة كلها لـ «البنية التحتية» أي للعامل الاقتصادي المادي ، ووسائل الإنتاج وما شاكل ذلك ، فهي التي تحرِّكها ، وهي تتغير بتغيرها ، وتخضع لها ، وتتبع منها .

ومن ثَمَّ فإن الأدب مبنيّ على العامل الاقتصادي ، وهو انعكاس لحياة الإنسان والمجتمع المادية ، وهذا كلام غير صحيح كذلك ، فالفكر عامة ـ والأدب منه ـ ظاهرة إنسانية ، وهو أعمق بكثير من أن يكون خاضعاً للعامل الاقتصادي وحده ، بل هو حصيلة عوامل كثيرة ، وهو ظاهرة ضخمة تشكلها ملابسات وظروف مختلفة : بعضها فردي ، وبعضها اجتماعي ، وبعضها ديني ، وبعضها الآخر اقتصادي ، فالعامل المادي الاقتصادي قد يكون واحداً من هذه العوامل ، ولكن ليس هو العامل الوحيد من غير شك .

بل إن الفكر بأشكاله المختلفة ـ ولا سيما الدين ـ هو الذي يغيّر المجتمع ، ويؤثر فيه ، ويحكم الجانب المادي ، وليس العكس .

٣ ـ محدودية خطاب الواقعية الاشتراكية :

توجّه الخطاب في أدب الواقعية الاشتراكية ـ كما عرفت ـ إلى طبقة معينة ، هي التي أطلق عليها الشيوعيون اسم «البروليتاريا» أي الطبقة الدنيا المتمثلة في العمال ، والكادحين ، والفقراء ، والمعدومين ، وما شاكل ذلك . .

وكما كان خطاب الواقعية الاشتراكية في الأدب فئوياً محدوداً في الجمهور المخاطب به ، كان محدوداً كذلك في نوعيته ، إذ ركّز فقط على قضايا الجوع ، والفقر ، والبؤس ، والطعام ، وضرورات المعيشة ، وما شاكل ذلك ، ممّا حمل واحداً مثل العقاد ـ رحمه الله ـ على السخرية منهم بسبب ضيق الخطاب سخرية مرة[1] .

ولا همّ للأدب الذي أنتجته الواقعية الاشتراكية إلا تحريض الفقراء على الأغنياء ، والعمال على ربّ العمل ، وتأجيج نار الصراع بين الطبقات ، والانتصار للطبقات الدنيا ، وعدّ الحق معها ، ثم التبشير بانتصارها حتى يقوم المجتمع الشيوعي ، وتذوب ـ في زعمهم ـ الفوارق بين الطبقات ، وتُحلّ مشكلات العالم .

وهذا كله كلام متهافت في التصور الإسلامي ، فالأدب الذي ينشُدُه الإسلام ليس فئوياً ولا طبقياً ، يتوجه بخطابه ـ كما يتوجه بخطابه الديني كذلك ـ إلى الناس كافة ، بجميع طبقاتهم وأجناسهم ومستوياتهم . .

والخطاب الأدبي ـ في التصور الإسلامي ـ لا يرى الحق أو الباطل حكراً على فئة دون أخرى ، أو مقصوراً على طبقة دون غيرها كما يرى ذلك الشيوعيون ، بل الحق قد يكون مع الأغنياء وقد يكون مع الفقراء ، والذنب قد يكون ذنب هؤلاء أو أولئك ، فالتعميم في الأحكام ، وربطها بقوم دون قوم ، مخالف للحكمة والعدل .

والخطاب الأدبي ـ في المنظور الإسلامي ـ يسعى إلى تأسيس خطاب يعالج جميع مشكلات الإنسان وهمومه وشجونه وشؤونه : الروحية ، والمادية ، والاجتماعية ، والعاطفية ، ولا يقتصر على جانب واحد ويهمل الجوانب الأخرى .

---

(١) انظر «يسألونك» للعقاد : ص٢٣٧ ، والأدب ومذاهبه لمحمد مندور : ص١٠٦ .

أثر الواقعية الاشتراكية
في الادب العربي المعاصر

لم يترك مذهب أدبي غربيّ في الأدب العربي المعاصر من الأثر ما تركته الواقعية الاشتراكية .

ذلك أن الواقعية الاشتراكية قد ارتبطت ـ كما ذكرنا في غير هذا الموضع ـ بالسياسة ، إذ أصبح هذا المذهب هو الاتجاه الأدبيّ الرسمي في البلاد التي سيطرت فيها الشيوعية ، كالاتحاد السوفيتي سابقاً ، والصين ، وبعض دول أوروبا الشرقية ...

وانتقل هذا المذهب الأدبي إلى البلاد العربية كذلك مع انتشار الشيوعية والاشتراكية في بعض أقطاره ، واستطاع كثير أو قليل من الشيوعيين والاشتراكيين العرب أن يتبوّؤا مواقع هامة في السّلطة والإعلام ، فنشروا أفكارهم ، وروجوا لها ، زاعمين أنها تمثل التقدمية والثورة ، وأنها هي التي ستخلص المجتمع العربي من التأخر والرجعية اللذين يعيشهما .

وقد شهد العقدان الخامس والسادس من القرن العشرين خاصة هيمنة كاسحة لهذا التيار الشيوعي على الساحة الثقافية العربية ، حتى بدا لقوم عندنا كأنه هو وحده الأدب الحقيقي والنقد الحقيقي[1] .

وقد انخدع بذلك كثير من البسطاء والسُّذج ، ومورس على بعض منهم الإرهاب والتخويف ، فراحت أفكار الشيوعية والماركسية والاشتراكية وألفاظ الثورة والتحرر تنتشر في الثقافة العربية ، وتعرف طريقها إلى الأدب العربي : شعره ونثره .

الواقعية الاشتراكية في الشعر العربيّ :

فشت الواقعية الاشتراكية ـ بما فيها من فساد في التصور ، وانحراف في الرؤية الفكرية ، وخروج على الدين ـ في الأدب العربيّ المعاصر كالوباء .

---

(١) انظر المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين ، لشكري عياد ، ص٣٨ .

ومضى كثير من الشعراء العرب وراء هذا التيار الجدد «فعبروا عن أنفسهم وعن مشاكل مجتمعاتهم مستوحين الماركسية طريقاً للإصلاح وتحقيق العدالة ...

فلم يكن من المعقول أن يعتزل الأدباء العرب ذلك التيار العالمي المؤثر والمستمد من واقع الحياة ، وألا يسايروا بالأخذ والعطاء هذا الاتجاه الأدبي العالمي ، فظهرت بصمات الواقعية الاشتراكية على إنتاجهم في صورة واقعية ثورية تتمثل في ذلك المنهج الفني الذي لم يستطع أن يتخلص من الآراء الماركسية التي هزت العالم بقواعد علمية صادقة لفهم الكيان الاجتماعي وحقيقة تطوره . .»[1] .

نعم ، لا يُعقل ألا يكون فريق من شعرائنا ممن ألغوا عقولهم ، ونسوا أو أُنسوا هويتهم الثقافية الذاتية في الساقة المنساقة يردّدون أنغام الموجة اليسارية الجديدة التي تكتسح العالم .

وسرعان ما لمعت أسماء شعراء كثيرين لبسوا جبة الاتجاه الجديد ، وعرفوا بعشق لهذه الأفكار الشيوعية لا يعدله عشق أهلها أنفسهم ، كالسياب ، وعبد الوهاب البياتي ، وعبد الباسط الصوفي ، ومحمد الفيتوري ، وأحمد سليمان الأحمد ، ومن سُمُّوا شعراء الأرض المحتلة ، كمحمود درويش ، وتوفيق زياد ، وسميح القاسم ، وكثيرين غير هؤلاء وأولئك .

مضى هؤلاء وغيرهم يرددون ـ كالببغاوات ـ أسماء رموز الشيوعية ، ويعظمون أصنامها : كماركس ، وأنجلز ، ولينين ، وماو ، ولوركا ، وجيفارا ، ومالا حصر له من الأسماء والشعارات .

راح واحد كالبياتي يبحث عن وطن ، فوجده في موسكو ، فاتخذها قبلته ، وراح يولي وجهه شطرها ، ويتغنى بها ، وبصوت لينين ، وشهداء الثورة البلشفية ، معلناً أنه لا مجد للإنسان إلا تحت الراية الحمراء ، يقول بأسلوب تقريري فجّ :

المجد للإنسان

لعالم يولد تحت الراية الحمراء

---

(١) الواقعية واتجاهاتها في الشعر المعاصر ، لرشيدة مهران : ص١٨٧ .

تحت راية العمال[1]

وراح يغني لموسكو قائلاً :

وصرخت أني لست يا موسكو وحيد

مادام قلبك يحتويني

يحتوي حب الجميع[2]

وراح يبشر بالثورة الشيوعية ، ويغني للعمال والكادحين ، وينصّب نفسه إماماً للفقراء والكادحين ، ومدافعاً عن حقوقهم ، ويشيد بالمدخنة والمصانع وهي ترمز إلى ثورة البروليتاريا ، ويمجد الرفاق وانتصاراتهم «إنه ببساطة شاعر شيوعي ملتزم»[3] .

ومضى محمد الفيتوري ، الشاعر السوداني ، يغني مأساة إفريقيا بأنغام مغموسة في ماء الفكر الشيوعي ، فتحدث عن البعث الإفريقي ، وثورة العبيد والزنوج على الأغنياء وتجار الرقيق ومصاصي دماء الشعوب الفقيرة ، وعكس روحاً حاقدة على كل شيء ، وتمثَّل نظرتهم إلى الدين على أنه أفيون الشعوب حينما قال :

والنبوات مُضلّةْ . .

والديانات تعلّةْ[4]

مضت طائفة كثيرة من الشعراء العرب تلتزم هذه الأفكار السقيمة ، فتردد عن إيمان ، أو جرياً وراء القطيع المندفع ، هذه الأنغام الشاذة العليلة «ونستطيع أن نلمح أصداء ذلك الحماس للتمسك بمبدأ الالتزام في ذلك الفيض الغزير من القصائد المتأثرة بالتيار الاشتراكي ، والتي تعبر عن الفقراء ، وبؤس العمال والفلاحين ، وغربة الشعب الفلسطيني وكفاحه ، واغتراب الزنوج في أمريكا وأفريقيا . .»[5] .

---

(١) ديوان «عشرون قصيدة من برلين» .

(٢) من قصيدة «موسكو في الشتاء» في ديوانه «كلمات لاتموت» .

(٣) الواقعية واتجاهاتها : ص٢٠٣ ، وانظر هنالك نماذج أخرى من شعره .

(٤) السابق .

(٥) حوار مع قضايا الشعر المعاصر : ص١١١ .

وأصبحت تسمع نغمات متكررة عن الفقر والكدح ، وعن عرق المضطهدين ، وعن الحقل والمصنع ، وعن الطبقات المتفاوتة ، وعن ثورة العمال ، وغير ذلك مما أضحى رواسم جاهزة لا يجوز للشاعر الخروج عليها ، أو التعبير عن غيرها ، وإلا حرم لقب الشاعر «الثوري» .

وقد لاحظ أحد الدارسين أن قصيدة الغزل مثلاً قد ضمرت على أيدي هؤلاء ، وإذا ظفرت باهتمام بعضهم فكثيراً ما تكون مشجباً تعلق عليه الشعارات المذهبية ، حتى كأنما وقر في نفوس هؤلاء القوم «أن التقدمية والواقعية تحتمان على الشاعر أن ينأى بشعره عن الحب والغزل ، وأن يلتزم فقط قضايا الكفاح السياسي والاجتماعي ، ولذلك كان بعض الشعراء يقدم أحياناً ما يشبه الاعتذار حين يهم بإلقاء قصيدة غزلية ، كأنما هو يقدم على ذنب يحتاج إلى تبرير . .»[1] .

وقد راح واحد مثل العقاد ـ رائد الرومانسية التي تجتوي القيود ـ يضيق ذرعاً بهذه القوالب التي صبّ الواقعيون الاشتراكيون الأدب فيها ، ويسخر منهم سخرية مرة ؛ إذ رأى من أعجب العجب أن تجعل هذه الموضوعات المادية الشغل الشاغل للإنسان ، وأن تكون ضرورات المعيشة والخبز والطعام دأب القائل الذي لا يتاح له الاشتغال بغيرها من غايات الحياة الأخرى الأسمى[2] .

وإذا كان المنطق الرومانسي الفائل هو الذي حمل العقاد على تسفيه الأدب الاشتراكيّ فإن الأكثر فيولاً في الرأي ما رآه واحد كرجاء النقاش من حل لإغراق الرومانسيين في السوداوية والغربة والانطواء ، وهو أن يندمج هؤلاء الهاربون في التنظيمات الثورية ، إذ «ليس من المعقول أن يكون مجتمعنا متجهاً إلى الاشتراكية بكل قواه . . ثم يكون إنتاجنا الأدبي الأصيل كله أدباً حزيناً يعبّر عن تجربة فردية ، وعن إحساس عميق بالأسى والغربة والتمزق . .»[3] .

---

(١) السابق : ص١١٧ .

(٢) انظر «يسألونك» : ص٢٣٧ ، ومحمد مندور في «الأدب ومذاهبه» ص١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٣) أدب وعروبة وحرية ، لرجاء النقاش : ص١٣٢ .

ثم يقع النقاش على الحل العظيم الذي فيه الشفاء ، فيرى أن «عزلة أدبائنا عن التنظيمات الشعبية السابقة مثل الاتحاد القومي ، هي التي جعلتهم بعيدين عن حركة الثورة الاشتراكية في الواقع ، وهي التي دفعتهم إلى الإحساس بالوحدة ، وعدم الانتماء إلى الجماعات ، والاقتصار على التجربة الفردية . . »[1] .

وهكذا فشت فاشية هذا التيار الشيوعي في شعرنا العربي الحديث ، وتركت فيه بصمات عميقة الجذور ، فكان السياب ، والبياتي ، وصلاح عبد الصبور ، والفيتوري ، وكثير غيرهم يلتزمون الماركسية[2] ، ويصدرون عنها ، وتحول الالتزام الذي تبنوه بحرارة إلى إلزام وإكراه ووعيد للمخالفين له في الرأي ، حتى قال أحدهم : «لا أعتقد أن هنالك مجتمعاً يخلو من نغمات نشاز ؛ فللرجعية من سياسية واجتماعية وفكرية أبواق قد يخفت صوتها تارة ، ويعلو تارة أخرى . وهذه الرجعية يجب أن يقف أدباؤنا لها بالمرصاد حتى يستطيعوا أن يخرسوا كل نبأة تصّاعد من أنفاسها بين الحين والحين . . » [3] .

وقد وقع السياب نفسه الذي كان أحد رموزهم الكبرى ضحية هذا الإرهاب . كان بدر عضواً في الحزب الشيوعي في العراق ، وكان يهاجم من لا يتفق معهم في الرأي ، ويتهمهم بالعمالة للاستعمار ، ويكتب لصديقه سنة ١٩٥١م قائلاً : إنه يكره الشعر الذاتي ، بل إنه يعد الشعراء الذاتيين عملاء للاستعمار ، فإذا ما خلع ربقة العبودية ، وطلق الحزب ، وراح يقترب ـ كما يقول الدكتور إحسان عباس ـ : من عراق الطفولة ،وعراق البؤس والجوع ، مبتعداً عن قضايا أممية ، كالتي عبر عنها في قصيدة «الأسلحة والأطفال» ولم يعد يفكر في أطفال الزنوج ، أو في عمال «مرسيليا» أو في الكادحين في كل مكان من الكرة الأرضية . . وحل محل ذلك شعور مستبد طاغ بالطبيعة العراقية . .[4] ثارت ثائرة الشيوعيين ؛ إذ أحسوا بوادر

---

(١) أدب وعروية وحرية ، لرجاء النقاش : ص١٣٣ .

(٢) واقعية ما بعد الحرب ، لحنا عبود : ص١١٧ .

(٣) محمود الحوت ، في كتاب «دور الأدب في التحرير والبناء» ٩٣٢/٢ . .

(٤) بدر شاكر السياب ، لإحسان عباس : ص٢١٧ .

تحول السياب إلى القومية العراقية ، فحاربوه بأبشع وسائل الإرهاب ، سقوه من الكأس التي كان يسقي بها الآخرين ، اتهموه بالعمالة للاستعمار[1] .

تلك هي الواقعية الاشتراكية التي فشت فاشيتها كالوباء في أدبنا العربي الحديث : موجةً ضيقة الأفق ، محدودة الرؤية ، فاسدة التصورات والأفكار ، استبدادية النزعة ، وقد بذرت ـ على عوارها ـ بذورها فينا ، وفتّحت لها النوافذ والأبواب ، وصارت ـ كما يقول الدكتور شكري عياد ـ أشبه بالدين الرسمي في عالم الأدب ، وراحت تقرر تبعية الأدب للسياسة ، إلى حد إلزام الكاتب بخط سياسي معين يجب ـ بطبيعة الحال ـ أن يكون هو الخط الذي تتخذه سياسة الدولة الرسمية .

الإنسان في نظر الواقعية الاشتراكية كائن سياسي أولاً ، ومن ثم فالسياسة تشغل المحل الأول ، وليست السياسة بوجه عام ، بل السياسة كما يقررها المذهب السياسي الوحيد المعترف به ، المذهب الماركسي اللينينيّ ، وكما يطبقها التفسير الوحيد المعترف به لذلك المذهب ، وهو تفسير الحزب الشيوعي ، الذي يكوّن خطاً أشبه بالصراط ، لا يجوز الانحراف عنه يمنة أو يسرة ، وإلا وقع الإنسان في الهلاك الأبدي . .[2] .

---

(١) حوار مع قضايا الشعر المعاصر : ص١١٤ .

(٢) تجارب في الأدب والنقد ، لشكري عياد : ص٣٠٤ .